الأدب فى مصر

لحضرة الدكتور أحمد ضيف بك وكيل دار العلوم
وأستاذ الأدب بها

أدب كل أمة صورة لحياتها النفسية والسياسية والاجتماعية ومالديها من ثقافة وحضارة . ولاشك فى أن لنا ثقافة وحياة اجتماعية وعقلية تمثل عاداتنا وأخلاقنا وعقائدنا، وتظهر فى فنون الكلام وضروب التعبير وفى كل آثارنا الفنية.

ولكن هل هذه الثقافة ثقافة مصرية نشأت فى مصر ؟ وهل عقائدنا وحياتنا الاجتماعية مصرية خالصة ؟ وهل فنون الكلام البليغ والشعر الفصيح فنون مصرية حتى يقال أن لنا شعرا مصريا وكتابة مصرية وخيالا مصريا وثقافة مصرية وحتى يتبين أن هناك فرقا بين أدبنا وآداب الأمم الاسلامية الاخرى ، كما أن هناك فرقا بين الثقافة اللاتينية والجرمانية مثلا ، أو بين الأدب الإنجليزى السكسونى والأدب الفرنسى اللاتينى ؟

إذا كان لنا ثقافة خاصة وأخيلة خاصة وبلاغة خاصة ومذاهب خاصة فى الأدب والنقد كان لنا أدب مصرى خاص . ولكن ثقافتنا ليست ثقافة محلية أو ليست ثقافة مصرية خالصة بل هى ثقافة عربية إسلامية منذ فتح العرب مصر إلى ماقبل قرن من الزمن حين اتصلنا بالثقافة الأوربية الحديثة فامتزجت الثقافتان لدى طائفة من قادة الفكر وأصحاب الرأى لدينا .

أما ثقافتنا القومية العامة فكانت - ولاتزال - عربية اسلامية لأننا تعلمنا علوم العرب وأخذنا كل شىء عن العرب الذين « عربوا عقول الأمم التى فتحوا

بلادها وغيروا معالم الحضارة القديمة فيها بقوة سلطانهم وعقولهم ونشر دينهم وتعصبهم لقوميتهم، فصبغوا عقول هذه الأمم بصبغتهم العربية الإسلامية حتى فى بلاد إسبانيا وجزر البحر المتوسط التى كانت متأثرة قليلا أو كثيرا بالثقافة اللاتينية واليونانية . ولم يكد يتأثر أدب العرب بشىء من عادات هؤلاء الناس أو بثقافتهم . فإنك تجد الأدب فى بلاد المغرب هو بعينه أدب العراق والشام ومصر وبلاد الأندلس اللهم إلا ماحدث من بعض الأخيلة الجزئية والتأنق فى الصناعة اللفظية مما لايعد أدبا جديدا ولاموضوعا جديدا ولامذهبا جديدا فى الأدب ؛ لأن موضوعات الشعر بقيت واحدة كما كانت فى بغداد وبلاد الشام وجزيرة العرب: من مدح وهجاء ونسيب إلى آخره . وإذا كان هناك اختلاف فى أساليب التفكير وأساليب الصناعة فقد كانت نزعات فردية سائرة على حسب الأهواء والميول الشخصية للأدباء والشعراء . فتجد فى العصر الواحد والبلد الواحد جملة من الشعراء والكتاب ، كل له طريقة خاصة وأسلوب خاص فى الصناعة لاغير . أما الموضوعات وطرق التفكير ومايتصل منها بالحياة العامة فكانت متشابهة كل التشابه، فقد كان يرجع بعضهم إلى بعض فى ذلك ويأخذ بعضهم عن بعض المعانى والأخيلة ويتبارون فى الصناعة لاغير . حتى فتح النقاد بابا واسعا سموه « باب السرقة » وكان الروح السائد فى الأدب العرب هو محاراة الشعراء والكتاب للعرب الأول فى أساليبهم ، فجعلوا هؤلاء المتقدمين نموذجا لهم فى كل شىء ووضعوا قواعد النقد على محاراتهم . حتى عابوا على المتنبى وأبى العلاء طريقة التفكير لديهما ؛ لأنهما صبغا شعرهما بصبغة غير عربية أو بصبغة فلسفية كما يقولون . وأصبح الشاعر المقدم على غيره من يجيد محاكاة الشعر القديم فى جميع نواحيه . ولم يقتصر ذلك على قطر من الأقطار بل عم جميع الأقطار الإسلامية .

ولذلك انطمست الصبغة القومية المحلية فى الأدب العربى ولاسيما الشعر،

حتى صار الأدب العربى الفصيح من حيث الصفات العامة واحدا فى كل مكان وفى كل زمان . وإذا كان هناك شيء مبتكر حدث فى أحد البلاد كالمقامات أو غيرها مما أنبتته بيئة خاصة — حاكاه الكتاب فى بلد آخر فى موضوعه وفى أسلوبه . . . . ولم يحدث شيء جديد غير معروف عند العرب سوى ما كان من القصص على أثر ترجمة كليلة ودمنة وألف ليلة وغيرها، وأكثر ذلك يحسب من الأدب العامى الملحون .

ولقد جمع الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » طائفة من الشعر والنثر الجيد فى مختلف البلدان العربية ولجماعة من فحول الشعراء والكتاب . فإذا قرأته فأناجد عليم بأنك لاتفرق بين شعر وشعر ، ولا بين شاعر وشاعر من حيث الدلالة على الصبغة القومية أولون محلى كما يقولون .

ولاتنس أنه عندما اكتسح التتار بغداد هاجر الشعراء والأدباء إلى الأقطار الاسلامية ولا سيما مصر، ونشروا شعرهم وأدبهم، وحاكاهم الأهلون فى ذلك . فكان ذلك كله شعرا عربيا وأدبا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا ، ولا بغداديا ولا مصريا وأصبح هؤلاء الشعراء شعراءنا وشعراء البلدان الأخرى التى نزلوا بها . ذلك لأن الأدب العربى الفصيح فى جملته كان بعيداً قليلا أو كثيرا عن المسائل العامة القومية . أو أن المسلمين جميعا كانوا يعتبرون كل بلد إسلامى وطنا لهم ، وكل مسلم من قومهم ، ولأن المسائل الاجتماعية القومية كثيرا ما كانت بعيدة عن موضوعات الشعراء والأدباء ؛ لأن الشعر كان مدحا أو ذما أو رثاء يعبر عن حالة نفسية خاصة .

كذلك كانت الحالة العامة للأدب العربى فى جميع الأقطار الإسلامية . ومصر من بين هذه البلاد لم يكن لها أدب فصيح خاص ولا ثقافة خاصة تظهر فى الشعر أو النثر، بل كان كتابها وشعراؤها يتبارون فى محاكاة الشعر القديم والكتابة القديمة حتى الزمن القريب .

ونذكر على سبيل الاستشهاد . حفنى بك ناصف والسيد توفيق البكرى وحتى إبراهيم بك المويلحى وابنه .

وقد مدح المرحوم مصطفى المنفلوطى الشيخ محمد عبده فى نحو سنة ١٩٠٥ بقصيدة تحسب من الشعر البدوى الصميم قال فيها :—

سقاها الحيا تربها وابل القطر وإن أصبحت قفراء فى مهمه قفر
طواها البلى طى الشحيح رداءه وليس لما يطوى الجديدان من نشر
مرابض آساد ومأوى أرانم تجاور فى قيعانها الفيل بالجحر
وأنشأت أبكى فالأسى يتبع الأسى إلى أن رأيت الصخر يبكى إلى الصخر

فهل تجد فى ذلك شيئا من الصبغة المصرية . ألست تتنسم ريح الصحراء فى هذا الشعر . ولا نكاد نجد صبغة محلية فى الأدب إلا فى وصف بعض الشعراء لبعض الأماكن كوصف النيل والهرم وأبى الهول . فإذا كان هذا يعد من الشعر القومى فإن وصف الشعراء أو الكتاب للبلاد التى يطوفون ربوعها يعد شعرا قوميا محليا . وإنما يحسب وصف كاتب فرنسى لمصر أدبا فرنسيا، لأنه كتب ذلك بلغة فرنسية وعبارات ولهجة فرنسية، أما وصف الشاعر العربى العراقى مثلا لمصر فلا يعد أدبا مصريا لأنه كتبه بلغة العرب التى تحسب عباراتها واحدة فى كل زمان ومكان . فلا تظهر فيها صبغة خاصة قومية . ولا يحسب وصف الشيخ حسن العطار — المصرى الذى كان شيخا للأزهر — لربوع الشام شعرا شاميا بل هو شعر عربى .

وإنما الأدب القومى هو ما يصور النفوس والعادات لأمة من الأمم على أن يكون قائله من أهل ذلك البلد ليرسم حياته وحياة قومه الاجتماعية والسياسية . ويمتاز الأدب القومى باللهجة الخاصة القومية والعبارات الجارية على ألسنة هؤلاء الناس ، إذا كانت هذه حال الأدب العربى فى جميع البلاد الإسلامية . ومصر أحد هذه البلاد التى توطدت فيها دعائم الثقافة العربية والأدب

العربى . فليس لها أدب خاص فصيح يمتاز عن الأدب العربى فى البلاد الأخرى . وإذا كان لمصر أدب خاص أو صبغة خاصة فى الأدب فإن ذلك أظهر ما يكون فى الأدب العامى الذى انتشر فى القرن التاسع عشر ، وفى بعض كلام شعرائها وكتابها الحديثين.

***

كان الشعر فى مصر إبان القرن التاسع عشر كما كان فى جميع الأقطار العربية محاكاة للقديم وجريا على أساليب شعراء العصور المتقدمة فى الموضوعات التى عرفت : من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك . حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعمد إلى رصانه الشعر القديم فيقلده وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يكن الشعر أكثر من صناعة من الصناعات اللفظية ؛ لا شعوراً ولا أثراً من آثار إلهامات النفوس ولا صورة من العصر والاجتماع الذى كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء . ولم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعراء مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى كما بينا ذلك .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لديهم أثر جديد فى الشعر ، ولا صبغه مصرية اجتماعية كما كانت الحال قبل ذلك فى عصر المماليك والعصر العثمانى .

وفى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى والقرن التاسع عشر الميلادى ظهر الشيخ رفاعه الطهطاوى بعد أن عاد من البعثة التى أرسلها محمد على باشا إلى باريس ، فحاول إدخال نوع جديد فى الشعر المصرى ، إذ تعلم الفرنسية ودرس آدابها . وأراد محاكاة بعض الشعراء هناك ، وكان من أول آثاره فى ذلك أن نقل قصيدة المارسيين الفرنسية إلى العربية فى شعر ، تصرف فيه بعض التصرف ، حيث قال :

حيث قال :

فهيا يا بنى الأوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا ملينا

***

عليكم بالسلام أيا أهالى ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودكم غدا فيكم جلياً

***

فماذا تبتغى منا الجنود وهم جمع وأخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بغى لم يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيّا الخ . . .

وقد جرى على هذا المنوال فى إنشاء أناشيد وطنية مصرية ومدائح لحكام مصر مزجها بذكر مجد البلاد ، ومن ذلك منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ من الهجرة — قال فيها يمدح فيها سعيد باشا الخديو :

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل حسب عريق زانه مجد أثيل
وفخارنا فى الكون جل عن المثيل لرحابنا تطوى المهامة بالطلاح
بشرى . . . . . .
نحن السراة وشأننا حب الوطن ولشأننا السامى نزاحم من قطن
شانى حمانا ليس من أهل الفطن فهو الدعى وعرضه شرعاً مباح
بشرى . . . . . .
وطن عزيز لايهان ولايضام وحمى تعزز من علا علياه حام
مجـــد له لازال يخترق الغمام عين السها لفخاره ذات التماح
بشرى . . . . . .

يا أهل مصر بر مصر فرض عين في البر نبذل عن رضا نفس أو عين
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين ما عندنا في فقئها إلا الرماح

بشرى . . . . . .

الخ . . . . ماقال . . . . . .

فكان الشيخ رفاعة من المجددين في الشعر المصري على هذا النمط ، وكان يمكن أن يكون لهذا الغرض الجديد من الشعر وأمثاله — مما يعبر عن الحياة المصرية من بعض وجوهها — أثر لو أن الشعراء نسجوا على منواله وساروا في هذا الطريق الجدي القومي لرسموا لنا الاجتماع المصري، وتركوا المدح ومايتبعه من ملق ورياء — ولكن الحركة الأدبية ، كانت حركة فردية ، كما قلنا فلم تسر الروح القومية في نفوس الشعراء جميعا. ولكن الصيغة المصرية أخذت تدب في نفوس الأدباء منذ أن ثارت نفس محمود سامي البارودي لأنه رسم في شعره صوراً من الحياة النفسية المصرية لتأثره بحوادث مصر السياسية والاجتماعية، فأثارت في نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم ذلك في شعر عربي فصيح جاري فيه القدماء في أساليبهم الرصينة ، فكانت أول خطوة في الأدب المصري خطاها سامي البارودي وتبعه بعد ذلك غيره وقد تأثر النثر البليغ أيضا بالاجتماع المصري، وأخذ الأدب يتطور من أثر انتشار الروح الوطني ومحاكاة الأمم الأوروبية في ذلك وكان لإسماعيل باشا صبري وأحمد بك شوقي وحافظ بك إبراهيم وغيرهم ممن جاراهم أثر في هذه الحركة الأدبية الأخيرة وتمصير الأدب العربي قليلا أو كثيراً . ولكن أكثر ما كان الأدب المصري ظهوراً في تلك الحركة التي ظهرت منذ حكم إسماعيل باشا وإبان ظهور الحركة العرابية الوطنية على ألسنة بعض الكتاب والشعراء في أزجالهم العامية ومقالاتهم النثرية العامية أيضا التي كانت تكتب في بعض الصحف ، وقد نشر هؤلاء الكتاب مقالات عبروا فيها عن الأفكار العامة وصوروا الاجتماع المصري ومايجول به في

أزجال شعرية أو أحاديث نثرية ، ووضعوا ذلك فى عبارات فنية لاتقل بهجة وجمالا عن ذلك الشعر العربى الفصيح .

وقد كان هذا الأدب العامى يمثل الاجتماع المصرى تمثيلا صحيحا ويصور أخلاق المصريين . فقد كانت الحالة الاجتماعية منذ استولى محمد على على مصر فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وأوائل القرن العشرين متأثر بأحوال سياسية بعضها كان عالقا بالنفوس من عصر المماليك ذلك العصر الاستبدادى الذى ولد فى الشعب المصرى الخضوع للحاكم خوفا من بطشه والتهكم عليه وعلى أعوانه والاستسلام للقضاء والاستهانة بأهوال الحياة وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله والتسلى عند الآلام بالتهكم والسخرية والرضا بما ينال الإنسان فى عيشه حتى أصبحت هذه الصفات عامة فى المصريين ، وكانت أكثر ظهوراً فى سكان القاهرة الذين كانوا متصلين بالحكام وعلى كثب من أعمالهم ، وكان لتبسط بعض الحكام فى الحياة والإفاضات على العامة بالأموال أن ظهر بعض الأدباء والشعراء والمغنين فى هذا الميدان . كالشيخ على الليثى وعبده الحمولى وغيرهما حتى سرى فى البلد روح فنى أدبى ، وعلى أثر ذلك انتشر فى النفوس نوع من السرور والميل إلى التهكم والنقد الحلو والفكاهة العذبة ، فوافق ذلك الخلق المصرى فى جملته ، لأن المصرى خفيف الروح يميل إلى « التنكيت والتبكيت » فكه المجلس يمزج الهزل بالجد فى حديثه حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر فى المسائل الجدية ، كثير التسامح ليس الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصيبه من عدو يريد أن ينكل به أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة (أو بنكتة بلدية) أو بفكاهة ظريفة ، ولقد يكتفى بالتهكم والسخرية لإظهار ألمه ويبتلع الكلمة المرة التى يغص بها غيره . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غيره وإن أساء لأنه صفوح عن الاساءات ، به كثير من « السذاجة » الفطرية التى قد تتغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه لأنه طيب

القلب، كريم النفس ضعيف الإرادة يحتقر نفسه أحيانا ، ومن هنا كان كثير التسامح.

كل هذا ظهر فى تلك الأزجال والأحاديث العامية التى تمثل حقيقة تلك الناحية الاجتماعية والفكرية فى مصر ، وقد انتشر ذلك على لسان الشيخ حسن الآلاتى فى أحاديث عامية كتبها فى كتابه المعروف ، وعبد الله نديم، والشيخ القوصى والشيخ النجار . وقد امتلأت الصحف اليومية إذ ذاك بهذا الأدب العامى . وظهر بين ذلك أدب لم يكن معروفاً قبل ذلك العصر وهو تلك القصص التمثيلية المصرية المكتوبة بلهجة قريبة من لغة العامة ، وأول من ابتكر هذا النوع عبد الله نديم فى روايته « الوطن والعرب » كما كتب مقالاته بلغة قريبة من اللغة العامية فى صحفه مثل « مصرى تفرنج » وغيرها من هذا النوع ، وصف فيها الرذائل الفاحشة ونقد أحوال الاجتماع وغيرها.

هذا فى جملته مايسمى بالأدب المصرى إذا صح لنا إطلاق الأدب على نوع من الشعر العامى والكتابة العامية ، وقد يدخل هذا فى تاريخ الأدب القومى ، ولكنه لايدخل فى تاريخ الأدب الفصيح . ونعود فنقول إن الصبغة المصرية فى الأدب العربى ليس لها أثر ظاهر إلا فى بعض القصائد والمنشآت التى كتبت أخيراً فى أقلام البارودى وشوقى وحافظ والسيد توفيق البكرى وحفنى ناصف وإبراهيم المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » والآن تظهر على شبا أقلام بعض كتابنا الحديثين المعاصرين ؟

أحمد ضيف